

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مؤتمرات البيت الحكيم للفكر الإسلامي



المؤتمر العام الرابع عشر

٢٢-٢٥ شعبان ١٤٢٨هـ / ٤-٧ أيلول ٢٠٠٧م

أنظروا في قوله تعالى

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾

الأستاذ الدكتور بشار عواد معروف

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾

(آل عمران: ٣١)

أنظار في قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾

أ. د. د. بشار عواد معروف

## آية المحبة والمحنة:

هذا هو القسم الأول من الآية الحادية والثلاثين من سورة آل عمران، وهي التي تسمى آية المحبة، قال أبو سليمان الداراني: لما ادّعت القلوب محبة الله أنزل الله لها محنة ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾<sup>(١)</sup> [آل عمران: ٣١].

ومسألة المحبة أصل مقامات الإيمان والإحسان، فلو بطلت المحبة لبطلت جميع مقامات الإيمان والإحسان، ولتعطلت منازل السير إلى الله، فإنها روح كل مقام ومنزلة وعمل، فإذا خلا منها فهو ميت لا روح فيه، ونسبتها إلى الأعمال كنسبة الإخلاص إليها، بل هي حقيقة الإخلاص، بل لا نبعد إذا قلنا: هي الإسلام كله، فإنها الاستسلام بالذل والحب والطاعة لله، فمن لا محبة له لا إسلام له البتة، بل هي حقيقة شهادة أن لا إله إلا الله، فإن "الإله" هو الذي يأله العباد حبا وذلا وخوفاً ورجاءً وتعظيماً وطاعة له<sup>(٢)</sup>.

وقد اختلف في سبب نزولها، فقال الحسن البصري وابن جريج: زعم أقوام على عهد رسول الله ﷺ أنهم يحبون الله، فقالوا: يا محمد، إنا نحب ربنا، فأنزل الله تعالى هذه الآية<sup>(٣)</sup>.

وروى جوير بن سعيد الأزدي - وهو ضعيف جداً كما في تحرير التقريب ١/٢٢٦ - عن الضحاك بن مزاحم الهلالي، عن ابن عباس، قال: وقف النبي ﷺ على قريش وهم في المسجد الحرام،

(١) ابن قيم الجوزية: مدارج السالكين ٣/٢١.

(٢) نفسه ٣/٢٦.

(٣) الواحدي: أسباب النزول ١٠٥، والسيوطي: لباب النقول ٥٥، والدر المنثور ٢/١٧.

وقد نصبوا أصنامهم، وعلقوا عليها بيض النعام، وجعلوا في آذانها الشنوف<sup>(١)</sup> والقرط وهم يسجدون لها، فقال: "يا معشر قريش، لقد خالفتم ملة إبراهيم وإسماعيل، ولقد كانا على الإسلام"، فقالت قريش: يا محمد، إنما نعبد هذا حباً لله، ليقربونا إلى الله زلفى، فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ﴾، وتعبدون الأصنام لتقربكم إليه ﴿فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ (آل عمران: ٣١)، فأنا رسوله إليكم وحقته عليكم، وأنا أولى بالتعظيم من أصنامكم<sup>(٢)</sup>.

وروى الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس: أن اليهود لما قالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه، أنزل الله تعالى هذه الآية، فلما نزلت عرضها رسول الله ﷺ على اليهود فأبوا أن يقبلوها<sup>(٣)</sup>.

وروى محمد بن إسحاق بن يسار، عن محمد بن جعفر بن الزبير، قال: نزلت في نصارى نجران، وذلك أنهم قالوا: إنما نعظم المسيح ونعبدُه حباً لله وتعظيمًا له، فأنزل الله تعالى هذه الآية رداً عليهم<sup>(٤)</sup>.

وقد تناول إمام المفسرين أبو جعفر الطبري هذه الأقوال بالنقد، ورجح قول محمد بن جعفر ابن الزبير، على الرغم من كونه خيراً مرسلًا، وقال: "لأنه لم يجر لغير وفد نجران في هذه السورة ولا قبل هذه الآية ذكر قوم أذاعوا أنهم يحبون الله ولا أنهم يعظمونه فيكون قوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ﴾ فآتبعوني، جواباً لقولهم على ما قاله الحسن. وأما ما روى الحسن في ذلك مما قد ذكرناه، فلا خبر به عندنا يصح، فيجوز أن يقال: إن ذلك كذلك، وإن لم تكن في السورة دلالة على أنه كما قال،

(١) جمع شنف، وهو من حلي الأذن، وقيل: هو ما يعلق في أعلاها.

(٢) الواحدي: أسباب النزول ١٠٥-١٠٦، وسند هذا الحديث ضعيف جداً لحال جويبر، والضحاك وإن كان صدوقاً فهو كثير الإرسال (تحرير التريب ١٤٩/٢) ولم يلق ابن عباس، لكنه أخذ تفسيره عن سعيد بن جبير (ينظر طبقات ابن سعد ٣٠١/٦، والمعرفه ليعقوب الفسوي ١٠٨/٢، وتهذيب الكمال ٢٩٣/١٣).

(٣) الواحدي: أسباب النزول ١٠٦، وإسنادها تالف، فالكلبي متهم بالكذب وأبو صالح ضعيف.

(٤) الطبري، جامع البيان ١٥٥/٣، الواحدي: أسباب النزول ١٠٦، السيوطي: الدر المنثور ١٧/٢.

إلا أن يكون الحسن أراد بالقوم الذين ذكر أنهم قالوا ذلك على عهد رسول الله ﷺ وقد نجران من النصارى، فيكون ذلك من قوله نظير إخبارنا، فإذا لم يكن بذلك خبر على ما قلنا، ولا في الآية دليل على ما وصفنا، فأولى الأمور بنا أن نلحق تأويله بالذي عليه الدلالة من آي السورة، وذلك هو ما وصفنا؛ لأن ما قبل هذه الآية من مبتدأ هذه السورة وما بعدها خبر عنهم، واحتجاج من الله لنبية محمد ﷺ، ودليل على بطول قولهم في المسيح، فالواجب أن تكون هي أيضاً مصروفة المعنى إلى نحو ما قبلها ومعنى ما بعدها" (١) .

ومهما يكن سبب نزول الآية فلا شك أن المراد منها هو عموم اللفظ، بصرف النظر عن خصوص سببه (٢)، فكل واحد من فرق العقلاء يدعي أنه يجب الله ويطلب رضاه وطاعته، فقال لرسوله ﷺ: قل إن كنتم صادقين في ادعاء محبة الله تعالى فكونوا منقادين لأوامره محترزين عن مخالفته، وإذا قامت الدلالة القاطعة على نبوة محمد ﷺ وجبت متابعتة، فإن لم تحصل هذه المتابعة دل ذلك على أن تلك المحبة ما حصلت .

وهذه الآية الكريمة من سورة آل عمران متصلة بسياقٍ بما قبلها وما بعدها من الآيات الكريمت في هذه السورة، فقد عظمَ اللهُ سبحانه ذاته، وبين جلالته سلطانَه بقوله: ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمَلِكَ مَن تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمَلِكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعْزِزُ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيَّتِ وَتُخْرِجُ الْمَمِيَّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾ (آل عمران: ٢٦-٢٧) .

وبذلك تعلق قلب المؤمن بمولى عظيم الشأن ذي الملك والملكوت، والجلال والجبروت .

(١) الطبري، جامع البيان ٣/٢٧٢ .

(٢) الزرقاني، مناهل العرفان ١/١١٨ فما بعد .

ثم ثنى جل شأنه بنهي المؤمنين عن موالة أعدائه، وحذر من ذلك غاية التحذير بقوله جل شأنه: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكٰفِرِينَ اَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللّٰهِ فِي شَيْءٍ اِلَّا اَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقٰنَةً وَيُحَذِّرْكُمُ اللّٰهُ نَفْسَهُ ۗ وَاِلَى اللّٰهِ الْمَصِيْرُ﴾ (آل عمران: ٢٨). وبته سبحانه على استئصال تلك الموالة بقوله: ﴿قُلْ اِنْ تُخَفَوْا مَا فِي صُدُوْرِكُمْ اَوْ تُبَدُوْهُ يَعْلَمُهُ اللّٰهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْاَرْضِ ۗ وَاللّٰهُ عَلٰى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيْرٌ﴾ (آل عمران: ٢٩)، وزاد التحذير في الآية التي بعدها بالوعيد الشديد ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوْءٍ تَوَدُّ لَوْ اَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ اَمَدًا بَعِيْدًا ۗ وَيُحَذِّرْكُمُ اللّٰهُ نَفْسَهُ ۗ وَاللّٰهُ رَءُوْفٌ بِالْعٰبِدِ﴾ (آل عمران: ٣٠). ثم استأنف قوله جل جلاله: ﴿قُلْ اِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّوْنَ اللّٰهَ فَاتَّبِعُوْنِيْ يُحْبِبْكُمُ اللّٰهُ﴾ (آل عمران: ٣١)، ليشير إلى طريق الوصول إلى هذا المولى جل وعلا، فكان قائلاً يقول: بأي شيء يُنال كمال المحبة وموالة الرب؟ فقيل: بعد قطع موالة أعدائنا تنال تلك الدرجة الرفيعة بالتوجه إلى متابعة حبيبنا، إذ كل طريق سوى طريقه مسدود، وكل عمل سوى ما أذن به مردود<sup>(١)</sup>.

### مفهوم المحبة:

والمحبة: مُيلُ النفس إلى الشيء لكمال أدركته فيه، بحيث يحملها على ما يقربها إليه. والعبد إذا علم أن الكمال الحقيقي ليس إلا الله، وأن كل ما يراه كمالاً من نفسه أو غيره فهو من الله وباللّٰه وإلى اللّٰه، لم يكن حبه إلا الله وفي الله، وذلك يقتضي إرادة طاعته والرغبة فيما يقربه إليه، فلذلك فُسِّرَت المحبة بإرادة الطاعة، وجُعِلَت مستلزماً لاتباع الرسول ﷺ في طاعته والحرص على مطاوعته<sup>(٢)</sup>.

(١) الألويسي: روح المعاني ٣/١٢٩.

(٢) حقي: روح البيان ٢/٢٢.

ومن أجمع ما قيل في هذا المعنى ما ذكره أبو بكر الكثاني، قال: جرت مسألة في المحبة بمكة أعزها الله تعالى أيام الموسم، فتكلم الشيخ فيها، وكان الجنيد البغدادي أصغرهم سناً، فقالوا: هات ما عندك يا عراقي. فأطرق رأسه ودمعت عيناه ثم قال: عبدٌ ذاهبٌ عن نفسه، متصلٌ بذكر ربه، قائمٌ بأداء حقوقه، ناظرٌ إليه بقلبه، فإن تكلم فبالله، وإن نطق فعن الله، وإن تحرك فبأمر الله، وإن سكن فمع الله، فهو بالله، والله، ومع الله. فبكى الشيخ وقالوا: ما على هذا مزيد، جزاك الله يا تاج العارفين<sup>(١)</sup>.  
فالحبة شجرة في القلب عروقها الذل للمحبوب، وساقها معرفته، وأغصانها خشيته، وورقها الحياء منه، وثمرتها طاعته، ومادتها التي تسقيها ذكره، فمتى خلا الحب عن شيء من ذلك كان ناقصاً<sup>(٢)</sup>.

والحب حرفان: حاء وباء، والإشارة من الحاء إلى الروح، ومن الباء إلى البدن، فالحب لا يدخر عن محبوبه قلبه ولا بدنه<sup>(٣)</sup>.

وتما يؤسف عليه أن المتكلمين مصرّون على أن محبة الله تعالى عبارة عن محبة إعظامه وإجلاله، أو محبة طاعته، أو محبة ثوابه؛ قالوا: لأن المحبة من جنس الإرادة، والإرادة لا تعلق لها بالحوادث ولا بالمنافع. وقد ردّ عليهم الإمام فخر الدين الرازي حين قال: "واعلم أن هذا القول ضعيف، وذلك لأنه لا يمكن أن يقال في كل شيء: إنه إنما كان محبوباً لأجل معنى آخر، وإلا لزم التسلسل والدور، فلا بد من الانتهاء إلى شيء يكون محبوباً بالذات، كما أننا نعلم أن اللذة محبوبة لذاتها، فكذلك نعلم أن الكمال محبوبٌ لذاته... . وكمال الكمال لله سبحانه وتعالى، فكان ذلك يقتضي كونه محبوباً لذاته من ذاته، ومن المقرّبين عنده الذين تجلّى لهم أثرٌ من آثار كماله وجلاله"<sup>(٤)</sup>.

(١) ابن قيم الجوزية: مدارج السالكين ١٦/٣.

(٢) ابن قيم الجوزية: روضة المحبين ٤٣١.

(٣) القشيري: لطائف الإشارات ٢٣٦/١.

(٤) الرازي، مفاتيح الغيب ١٩٧/٣.

وإلى مثل هذا المعنى أشار ابن قيم الجوزية حين قال: "وإن وجد في الناس من يؤثر محبوبه بنفسه وماله فذاك في الحقيقة إنما هو لمحبة غرضه منه، فحمله محبة غرضه على أن بذل فيه نفسه وماله، وليست محبته لذلك المحبوب لذاته بل بغرضه منه. وهذا المحبوب له مثلٌ ولحُبته مثلٌ، وأما محبة الله فليس لها مثلٌ ولا للمحبوب مثلٌ. ولهذا حَكَمَ الصحابة رضي الله عنهم رسول الله ﷺ في أنفسهم وأموالهم فقالوا: هذه أموالنا بين يديك فأحكم فيها بما شئت، وهذه نفوسنا بين يديك لو استعرضت بنا البحر لخصناها، تقاتل بين يديك ومن خلفك وعن يمينك وعن شمالك" (١).

وقد ساق الإمام أبو الثناء الألويسي رأي المتكلمين بشيء من التفصيل ثم قال: "وهو خلاف مذهب العارفين من أهل السنة والجماعة، فإنهم قالوا: المحبة تتعلق حقيقة بذات الله تعالى، وينبغي للكامل أن يحب الله سبحانه لذاته، وأما محبة ثوابه فدرجة نازلة، قال الغزالي -عليه الرحمة- في "الإحياء": الحب عبارة عن ميل الطبع إلى الشيء المذِّب، فإن تأكد ذلك الميل وقوي يسمى عشقاً، والبغض عبارة عن نفرة الطبع عن المؤلم المتعب، فإذا قوي سمي مقتاً، ولا يُظنُّ أن الحب مقصور على مدركات الحواس الخمس حتى يقال: إنه سبحانه لا يدرك بالحواس ولا يتمثل بالخيال فلا يحب، لأنه ﷺ سُمِّي الصلاة قرّة عين، وجعلها أبلغ الحبوبات، ومعلوم أنه ليس للحواس الخمس فيها حظٌّ، بل حس سادس مظهره القلب، والبصيرة الباطنة أقوى من البصر الظاهر، والقلب أشد إدراكاً من العين، وجمال المعاني المدركة بالعقل أعظم من جمال الصور الظاهرة للأبصار، فتكون - لا محالة - لذة القلوب بما تدركه من الأمور الشريفة الإلهية التي تجلُّ أن تدركها الحواس أتم وأبلغ، فيكون ميل الطبع السليم والعقل الصحيح إليه أقوى، ولا معنى للحب إلا الميل إلى ما في إدراكه لذة" (٢).

(١) روضة المحيين ٢٩٩.

(٢) روح المعاني ٣/١٢٩.



## الأسباب الجالبة للمحبة:

إنّ جميع طرق الأدلة - عقلاً ونقلاً وفطرةً وقياساً واعتباراً وذوقاً ووجداناً - تدل على إثبات محبة العبد لربه والرب لعبده. وقد ذكر الإمام ابن القيم رحمه الله في كتابه "روضة المحبين ونزهة المشتاقين" قريباً من مئة طريق مؤدية إلى حصول تلك المحبة وما تثمر لصاحبها من الكمالات، ثم عدّ في الأسباب الجالبة للمحبة والموجبة لها عشراً هي أمهاتها:

- ١- قراءة القرآن بالتدبر والتفهم لمعانيه وما أريد به.
  - ٢- التقرب إلى الله بالنوافل بعد الفرائض، فإنها توصله إلى درجة المحبوبة بعد المحبة.
  - ٣- دوام ذكره على كل حال، باللسان والقلب، والعمل والحال، بحيث يكون نصيبه من المحبة على قدر نصيبه من هذا الذكر.
  - ٤- إثارة محابه على محاب العبد عند غلبان الهوى، والارتقاء إلى محابه وإن صعب المرتقى.
  - ٥- مطالعة القلب لأسمائه وصفاته، ومشاهدتها ومعرفتها، فمن عرف الله بأسمائه وصفاته وأفعاله أحبه الله لا محالة.
  - ٦- مشاهدة برّه وإحسانه وآلائه ونعمه الباطنة والظاهرة، فإنها داعية إلى محبته.
  - ٧- انكسار قلبه بكليته بين يدي الله تعالى.
  - ٨- التأدب بأدب العبودية بين يدي الله ثم ختم ذلك بالاستغفار والتوبة.
  - ٩- مجالسة المحبين الصادقين والتقاط أطياب ثمرات كلامهم، كما ينتقى أطياب الثمر.
  - ١٠- مباحة كل سبب يحول بين القلب وبين الله عز وجل.
- فبهذه الأسباب العشرة يصل المحبون إلى منازل المحبة، وبها يدخلون على الحبيب. وملاك ذلك كله أمران: استعداد الروح لهذا الشأن، وانفتاح عين البصيرة<sup>(١)</sup>.

(١) ابن قيم الجوزية: مدارج السالكين ٣/١٧-١٨.

## الرسول ﷺ قطبُ الحبة:

إن المفسرين على أن الضمير في قوله تعالى: ﴿فَاتَّبِعُونِي﴾ راجعٌ إلى النبي ﷺ، فصارت الحبة: اتباعُ الرسول ﷺ في أقواله وأفعاله وآدابه، إلا ما خُصَّ به<sup>(١)</sup>. وقد قرن الله سبحانه طاعته بطاعة رسوله في العديد من الآيات، فأتبع هذه الآية بقوله في التي بعدها: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ (آل عمران: ٣٢)، وأعادها في السورة نفسها وجعلها سبباً للرحمة فقال سبحانه: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (آل عمران: ١٣٢)، وقال في سورة النساء: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَذُودُوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ (النساء: ٥٩)، وقال جل شأنه: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (الأنفال: ١)<sup>(٢)</sup>. وخصَّه جل شأنه بالطاعة وحده في العديد من الآيات<sup>(٣)</sup>. وجعل طاعة الرسول من طاعة الله، فقال: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ (النساء: ٨٠)، وأمر المسلمين المؤمنين أن يأخذوا بما آتاهم الرسول ويتركوا ما نهاهم عنه ﷺ فقال: ﴿وَمَا ءَاتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ (الحشر: ٧). وجعل من لوازم الإيمان الأخذ بالتوجيهات النبوية، فقال جل شأنه مُقسماً: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (النساء: ٦٥). وقد أعطى الله نبيه ﷺ وظيفة البيان لما جاء في القرآن من أحكام مجملية أو تفسيراً أو تخصيص، فيكون بيانه متمماً للقرآن الكريم وضرورياً لمعرفة الحكم الشرعي الدقيق ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ (النحل: ٤٤).

(١) السلمي، حقائق التفسير، البقلي: عرائس البيان: انظر الموقع الإلكتروني [www.altafsir.com](http://www.altafsir.com)

(٢) وتنظر: الأنفال: ٢٠ و٤٦، والمجادلة: ١٣.

(٣) المائدة: ٩٢، والنور: ٥٤ و٥٦، ومحمد: ٣٣، والتغابن: ١٢.

ولما كان عليه الصلاة والسلام حبيبه، فكل من يدعي المحبة لزمه اتباعه، لأن محبوب المحبوب محبوب، فتجب محبة النبي ﷺ. ومحبه إنما تكون بمتابعته وسلوك سبيله قولاً وعملاً وخلقاً، حالاً وسيرةً وعقيدة، ولا تمشي دعوى المحبة إلا بهذا، فإنه قطب المحبة، ومظهره وطريقته طلسم المحبة، فمن لم يكن له من طريقته نصيب لم يكن له من المحبة نصيب، وإذا تابعه حق المتابعة ناسب باطنه وسرّه وقلبه ونفسه باطن النبي ﷺ وسرّه وقلبه ونفسه، وهو مظهر المحبة، فلزم بهذه المناسبة أن يكون لهذا المتابع قسط من محبة الله تعالى بقدر نصيبه من المتابعة، فيلقي الله تعالى محبته عليه ويسري من باطن روح النبي ﷺ نور تلك المحبة إليه، فيكون محبوباً لله محباً له. ولو لم يتابعه لخالف باطنه باطن النبي ﷺ فبُعد عن وصف المحبوبة وزالت المحبة عن قلبه أسرع ما يكون، إذ لو لم يحبه الله تعالى لم يكن محباً له<sup>(١)</sup>.

والمقصود أنه بحسب متابعة الرسول ﷺ تكون العزة والكفاية والنصرة، كما أن بحسب متابعته تكون الهداية والفلاح والنجاة، فالله سبحانه علق سعادة الدارين بمتابعته، وجعل شقاوة الدارين في مخالفته، فلا يتابعه الهدى والأمن والفلاح والعزة والكفاية والنصرة والولاية والتأييد وطيب العيش في الدنيا والآخرة، ولمخالفته - أعاذنا الله - الذلة والصغار والخوف والضلال والشقاء والخذلان في الدنيا والآخرة<sup>(٢)</sup>. وقد قال ﷺ: "فوالذي نفسي بيده، لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين"<sup>(٣)</sup>، وقال أيضاً: "ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما . . ." <sup>(٤)</sup> الحديث.

(١) القاشاني، تفسير القرآن، انظر الموقع الإلكتروني: [www.altafsir.com](http://www.altafsir.com)

(٢) ابن قيم الجوزية: زاد المعاد في هدي خير العباد ١/٣٧.

(٣) أخرجه البخاري ١/١٠ حديث رقم (١٤) و(١٥)، ومسلم (٤٤).

(٤) متفق عليه: البخاري ١/١٢ حديث (٢١)، ومسلم (٤٣).

وقال ﷺ: "كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبي" قالوا: يا رسول الله، ومن يَأبى؟ قال: "من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى" (١).

وقال جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنه: "جاءت ملائكة إلى النبي ﷺ وهو نائم، فقال بعضهم: إنه نائم، وقال بعضهم: إن العين نائمة والقلب يقظان، فقالوا: إن لصاحبكم هذا مثلاً، فاضربوا له مثلاً، فقال بعضهم: إنه نائم، وقال بعضهم: إن العين نائمة والقلب يقظان، فقالوا: مثله كمثل رجل بنى داراً وجعل فيها مأدبةً وبعث داعياً، فمن أجاب الداعي دخل الدار، وأكل من المأدبة، ومن لم يجب الداعي لم يدخل الدار ولم يأكل من المأدبة، فقالوا: أولوها له يفقهها، فقال بعضهم: إنه نائم، وقال بعضهم: إن العين نائمة والقلب يقظان، فقالوا: فالدار الجنة، والداعي محمد ﷺ، فمن أطاع محمداً ﷺ فقد أطاع الله، ومن عصى محمداً ﷺ فقد عصى الله، ومحمد ﷺ فرق بين الناس" (٢).

وفي حديث عبد الله بن هشام التيمي رضي الله عنه، قال: كنا مع النبي ﷺ وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب، فقال له عمر: يا رسول الله، لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي، فقال النبي ﷺ: "لا والذي نفسي بيده، حتى أكون أحب إليك من نفسك" فقال له عمر: فإنه الآن والله لأنت أحب إلي من نفسي، فقال النبي ﷺ: "الآن يا عمر" (٣).

وفي الصحيحين من حديث أنس رضي الله عنه أن رجلاً سأل النبي ﷺ عن الساعة، فقال: متى الساعة؟ قال: "وماذا أعددت لها"؟ قال: لا شيء إلا أنني أحب الله ورسوله، فقال: "أنت مع من أحببت". قال أنس: فما فرحنا بشيء فرحنا بقول النبي ﷺ: أنت مع من أحببت. قال أنس:

(١) البخاري ١١٤/٩ حديث (٧٢٨٠).

(٢) البخاري ١١٤/٩، ١١٥، حديث (٧٢٨١).

(٣) البخاري ١٦١/٨، حديث (٦٦٣٢) وأحمد ٤/٢٣٣ و٣٣٦ و٢٩٣/٥، وينظر كتابنا: المسند الجامع ١٢/٢٧٣ حديث

(٩٤٨٣).

فأنا أحب النبي ﷺ وأبا بكر وعمر وأرجو أن أكون معهم بحبي إياهم، وإن لم أعمل بمثل أعمالهم<sup>(١)</sup>.  
 وفي صحيح مسلم من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: جاء رجل إلى  
 رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، كيف ترى في رجل أحب قوماً ولمّا يلحق بهم؟ قال رسول الله  
 ﷺ "المرء مع من أحب"<sup>(٢)</sup>، ورواه من حديث أبي موسى الأشعري<sup>(٣)</sup>، ورواه الترمذي من حديث  
 صفوان بن عَسَّال، وقال: حسن صحيح<sup>(٤)</sup>.

وفي صحيح مسلم أيضاً من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: إنَّ  
 الله يقول يوم القيامة: أين المتحابون بجلالي (أي بعظمتي وطاعتي) اليوم أظلمهم في ظلي يوم لا ظل إلا  
 ظلي<sup>(٥)</sup>.

### شرف النبي ﷺ وأتباعه

لقد دلّت الآية الكريمة على شرف النبي ﷺ، فإن الله جلّ شأنه جعل متابعته متابعة حبيبه،  
 وقرن طاعته بطاعته، فمن ادّعى محبة الله وخالف سنة نبيه ﷺ فهو كذاب بنص كتاب الله تعالى،  
 كما قيل:

تعصي الإله وأنت تظهر حبه      هذا محال في الفعالِ بدیع  
 لو كان حبك صادقاً لأطعته      إنَّ المحبَّ لمن يحبُّ طيعُ

وإنما كان من ادّعى محبة الله وخالف سنة رسوله كاذباً في دعواه، لأن من أحبّ آخر يجب

(١) البخاري ١٤/٥ حديث (٣٦٨٨)، ومسلم (٢٦٣٩) (١٦٣).

(٢) مسلم (٢٦٤٠).

(٣) مسلم (٢٦٤١).

(٤) الترمذي (٢٣٨٧) (بتحقيقنا).

(٥) مسلم (٢٥٦٦).

خواصّه والمتصلين به من عبّده وغلّمانه وبيته وبنّانته ومحلّه ومكانه وجداره وغير ذلك، فهذا هو قانون العشق وقاعدة المحبّة. وإلى هذا المعنى أشار المجنون العامري حيث قال:

أمرُ على الديار ديار ليلي      أقبلُ ذا الجدار وذا الجدارا  
وما حبُّ الديار شغفٌ قلبي      ولكن حبُّ من سكن الديارا  
قال الإمام القشيري: قطع الله أطماع الكل أن يُسلم لأحدهم نفسه إلا مقتداهم سيّد الأولين  
والآخرين<sup>(١)</sup>.

### لا وصول إلى النور الأعلى إلا بالنور الأدنى

قال أبو عبد الرحمن السلمي رحمه الله: لا وصول إلى النور الأعلى لمن لا يستدلُّ عليه بالنور الأدنى، ومن لم يجعل السبيل إلى النور الأعلى التمسك بأداب صاحب النور الأدنى ومتابعته ﷺ فقد عمي عن التورين جميعاً فألبس ثوب الغرار.

وقال أبو عثمان رحمه الله في تفسير هذه الآية: صدّقوا محبتكم إياي بمتابعة حبيبي، فإنه لا وصول إلى محبتي إلا بتقديم محبته واتباعه على طريقته، فإنّ طريقته هي الطريقة المثلى والوصلة إلى الحبيب الأعلى.

وقال محمد بن الفضل في تفسيرها: نفى اسم المحبّة عن من يخالف شيئاً من سنن الشريعة ظاهراً وباطناً أو يترك متابعة الرسول ﷺ فيما دقّ وجلّ؛ لأنّ المتابع له من لا يخالفه في شيء من طريقته ﷺ<sup>(٢)</sup>.

### معنى محبة الله لعبده

ونأتي الآن إلى القسم الأخير المتحصّل من اتباع المصطفى ﷺ وثمرته وفائدته ودليله وعلامته.

(١) حقي، روح البيان ٢/٢٣.

(٢) السلمي: حقائق التفسير، والبقلي: عرائس البيان، انظر الموقع الإلكتروني: [www.altafsir.com](http://www.altafsir.com).

وأول ما نبدأ بمعناه، فمحبّة الحقّ للعبد: إرادته إحسانه إليه ولطفه به، وهي إرادة فضل مخصوص، فتكون بمعنى ثناءه سبحانه عليه ومدحه له، وتكون بمعنى فضله المخصوص معه، فعلى هذا تكون من صفات فعله<sup>(١)</sup>. وهي بمعنى محبة المرسل لكم، فما لم تحصل متابعة المرسل فليست محبتكم له حاصلة، ومحبة الله لكم منتقية<sup>(٢)</sup>.

## الإزام متبادل

والآية مشتملة على أنّ الإلزام من وجهين:

أحدهما: إن كنتم تحبون الله فاتبعوني؛ لأنّ المعجزات دلت على أنه تعالى أوجب عليكم متابعتي. الثاني: إن كنتم تحبون أن يحبكم الله فاتبعوني؛ لأنكم إذا اتبعتموني فقد أطعتم الله، والله تعالى يحب كل من أطاعه. وأيضاً، فليس في متابعتي إلا أني دعوتكم إلى طاعة الله تعالى وتعظيمه وترك تعظيم غيره، ومن أحب الله كان راغباً فيه، لأن المحبة توجب الإقبال بالكلية على المحبوب والإعراض بالكلية عن غير المحبوب<sup>(٣)</sup>.

## علامات المحبة:

قال تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهٌ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَتَخَفُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ (المائدة: ٥٤).

فالذين يحبهم الله ويحبونه لهم أربع علامات ذكرها الله سبحانه في هذه الآية الكريمة:

الأولى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾، ومعناه: أرقاء رحماء مشفقون عليهم عاطفون

(١) القشيري، لطائف الإشارات ١/ ٢٣٥.

(٢) ابن قيم الجوزية: مدارج السالكين ٣/ ٢٢.

(٣) الرازي، مفاتيح الغيب ٣/ ١٩٧.

عليهم . فلما ضَمَّنَ ﴿أَذَلَّةٌ﴾ هذا المعنى عدَّاهُ بحرف "على" ، قال عطاء: للمؤمنين كالولد لوالده والعبد لسَيِّده<sup>(١)</sup> . وفي الحديث الشريف: "لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه"<sup>(٢)</sup> ، وفي الصحيحين<sup>(٣)</sup> من حديث النعمان بن بشير: "ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضواً تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى" لفظ البخاري .

**الثانية:** ﴿أَعِزَّةٌ عَلَى الْكُفْرَيْنَ﴾ قال عطاء: وعلى الكافرين كالأسد على فريسته<sup>(٤)</sup> ، ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ (الفتح: ٢٩) ، وقال ابن كثير: هذه صفات المؤمنين الكُمَّلُ أن يكون أحدهم متواضعاً لأخيه ووليّه متعزِّزاً على خصمه وعدوّه<sup>(٥)</sup> ، غضوباً عبوساً في وجه الكافر، ضحوكاً بشوشاً في وجه أخيه المؤمن<sup>(٦)</sup> .

**الثالثة:** ﴿تُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ، والجهاد هو ذرُوةُ سنام الإسلام وقبته، ومنازل أهله أعلى المنازل في الجنة . والجهاد أربع مراتب: جهاد النفس على تعلم الهدى ودين الحق، ثم العملُ به والدعوة إليه والصبر على ذلك، ثم جهاد الشيطان على ما يلقي على العبد من الشبُهات والشكوك والإرادات الفاسدة والشهوات، ثم جهاد الكفار والمنافقين بالقلب واللسان والمال والنفس<sup>(٧)</sup> .

وقد قال الله تعالى في محكم كتابه العزيز: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ

(١) ابن قيم الجوزية: مدارج السالكين ٢٢/٣ .

(٢) البخاري ١٠/١ حديث (١٣) ، ومسلم (٤٥) .

(٣) البخاري ١١/٨ حديث (٦٠١١) ، ومسلم (٢٥٨٦) .

(٤) ابن قيم الجوزية: مدارج السالكين ٢٢/٣ .

(٥) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ١٣٦/٣ .

(٦) نفسه ٣٦٠/٧ .

(٧) ابن قيم الجوزية: زاد المعاد ٥/٣ فما بعد .



وَأَمْوَالُهُمْ بَأْسٌ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدَا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿التوبة: ١١١﴾ . فليأمل العاقد مع ربه عقد هذا التبايع ما أعظم خطره وأجله، فإن البائع هم المؤمنون، والمشتري هو الله عز وجل، والثن جنات النعيم والفوز برضاه، وقد أودع هذا العقد أفضل كتبه المنزلة من السماء وهي: التوراة والإنجيل والقرآن، وكهيل ذلك هو الله سبحانه وتعالى، الذي أعلمهم أن لا أحد أوفى بعهده منه تبارك وتعالى، ثم أكد ذلك بأن أمرهم بأن يستبشروا ببيعهم الذي عاقدوه عليه، ثم أعلمهم أن ذلك هو الفوز العظيم .

"ولما كثر المدعون للمحبة، طولبوا بإقامة البينة على صحة الدعوى، فلو يعطى الناس بدعواهم، لادعى الخليل حرفة الشجبي، فتوَع المدعون في الشهود، فقيل: لا تثبت هذه الدعوى إلا ببينة ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ (آل عمران: ٣١)، فتأخر الخلق كلهم، وثبت أتباع الرسول في أفعاله وأقواله وهديه وأخلاقه، فطولبوا بعدالة البينة، وقيل: لا تقبل العدالة إلا بتزكية ﴿ تَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تَخَافُوهَا لَوْمَةَ لَائِمٍ ﴾ (المائدة: ٥٤)، فتأخر أكثر المدعين للمحبة وقام المجاهدون، فقيل لهم: إن نفوس المحبين وأموالهم ليست لهم، فسلموا ما وقع عليه العقد، فإن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، وعقد التبايع يوجب التسليم من الجانبين . فلما رأى التجار عظمة المشتري وقدر الثمن، وجلالة قدر من جرى عقد التبايع على يديه، ومقدار الكتاب الذي أثبت فيه هذا العقد، عرفوا أن للسلعة قدراً وشأناً ليس لغيرها من السلع، فرأوا من الخسران البين والغبن الفاحش أن يبيعوها بثمن نجس دراهم معدودة تذهب لذتها وشهوتها وتبقى تبعثها وحسرتها، فإن فاعل ذلك معدود في جملة السفهاء، فعقدوا مع المشتري ببيعة الرضوان رضياً واختياراً من غير ثبوت خيار، وقالوا: والله لا نقيلك ولا نستقيلك، فلما تم العقد،

وسلموا المبيع، قيل لهم: قد صارت أنفسكم وأموالكم لنا، والآن فقد رددناها عليكم أوفر مما كانت وأضعاف أموالكم معها: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (آل عمران: ١٦٩)، لم نبتع منكم نفوسكم وأموالكم طلباً للربح عليكم، بل ليظهر أثر الجود والكرم في قبول المعيب والإعطاء عليه أجل الأثمان، ثم جمعنا لكم بين الثمن والمثمن<sup>(١)</sup>.

الرابعة: أنهم لا تأخذهم في الله لومة لائم. وهذا علامة صحة المحبة، فكل محب يأخذه اللوم من محبوبه فليس بمحب على الحقيقة<sup>(٢)</sup>، وفي حديث أبي ذر الذي أخرجه الإمام أحمد<sup>(٣)</sup> وغيره<sup>(٤)</sup>: أمرني خليلي ﷺ بسبع، فذكرها، ومنها: وأمرني أن لا أخاف في الله لومة لائم. وفي حديث له آخر، أن أبا ذر قال: بايعني رسول الله ﷺ خمساً وواثني سبعا وأشهد عليّ تسعاً: أن لا أخاف في الله لومة لائم<sup>(٥)</sup>.

وهكذا، فإن شجرة المحبة إذا غرست في القلب، وسقيت بماء الإخلاص ومتابعة الحبيب أمثرت أنواع الثمار، وآتت أكلها كل حين ياذن ربها، أصلها ثابت في قرار القلب وفرعها متصل بسدرة المنتهى لا يزال سعي المحب صاعداً إلى حبيبه لا يجبهه دونه شيء ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ (فاطر: ١٠)<sup>(٦)</sup>.

(١) ابن قيم الجوزية: زاد المعاد ٣/٧٣-٧٤.

(٢) ابن قيم الجوزية: مدارج السالكين ٣/٢٢.

(٣) المسند ٥/١٥٩.

(٤) الطبراني في الصغير (٧٥٨) وفي الدعاء (١٦٤٨)، والبيهقي في السنن الكبرى: ٩١/١٠.

(٥) مسند أحمد ٥/١٧٢.

(٦) ابن قيم الجوزية: مدارج السالكين ٣/٩.